مناهضة أزياء النساء قديماً

للأستاذ كوركيس عواد

بلغت النساء في عصرنا مبلغاً عظيماً من التفنن في ضروب الملبس وابتكار صنوفه. فأضحينا نرى أو نقرأ بين الفينة والأخرى عن زي جديد يشيع بين طبقات منهن، ثم لا يلبث أن يتقلب أمره فيصبح قديماً مستهجناً في أنظارهن، فيهمل استعماله ويعدل عنه إلى غيره

ومثل هـذا التقلب بين الأزياء لا يمكننا عده بدعة جديدة أو أمراً مستحدثاً؛ فإن من يتصفح الأسفار القديمة، لا يعدم أن تستوقفه أخبـار من هذا القبيل. ومما يلفت الأنظار إليه بوجه خاص، ما كانت تلقاه بعض الأزياء من معارضة واستنكار ممن كانت بأيديهم مقاليد الحكم والتدبير. وقد وجدنا أحد المؤلفين الأقدمين، وهو ابن الأخوة القرشي الشافعي، المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة (١٣٢٨م) يندد على نساء عصره ما انتهين إليه من سوء الحال في الأزياء المتكلّف فيها والتصنع الممقوت في المظهر، كما يبدو من عبارته التالية:

« والنساء في هذا المقام أشد تهالكاً من الرجال، ولمن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإتراف، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف. فقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان في حساب؛ وتلك لباس الشهرة التي لا يستتر منها اسبال مِرط[1] ولا أدنى جلباب. ومن جملتها أنهن يتصنعن عصائب كأمثلة الأسنمة، ويخرجن من جهارة أشكالها في الصورة المعلمة »[2].

وكانت بعض أزياء النساء قد أصابت مقاومة عنيفة، لما كانت تنطوي عليه من غرابة وتبذّل، فعمد أكابر القوم إلى إبطالها بما وسعته طاقتهم وأسعفهم سلطانهم. ومن الشواهد على ذلك ما رواه ابن إياس في حوادث سنة ٧٥١هـ (١٣٥٠م) من أن السلطان الملك الناصر أبا المحاسن حسن بن الملك الناصر محمد بن المملوك المنصور قلاوون « أبطل ما أحدثه النساء من القمصان التي خرجت في كبر أكمامها عن الحد، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف التركش؛ فأشهروا المناداة في القاهرة بإبطال ذلك، فرجعت النساء عن ذلك »[3].

ونظير ذلك ما حكاه ابن كثير في أحداث سنة ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) أن « في العشر الأوسط من جمادى الآخرة، نادى مناد من جهة نائب السلطنة حرسه الله تعالى في البلد [دمشق]، إن النساء يمشين في تستر، ويلبسن أُزُرَهنّ إلى أسفل من ثيابهن، ولا يُظهرن زينة ولا يداً. فامتثلن ذلك »[4].

ومثله ما رواه شمس الدين محمد بن طولون، عن ناصر الدين ابن شبل المحتسب أنه في سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) « أنكر على النساء لبس الطواق، ومنعهن، وبالغ حتى أحرق بعض

ليسوا أشخاص الدرامة الأوائل ... وإنما كان صاحب (الدور) الأول، ذلك المجهول الذي لا يُرى، رغم وجوده

كان ماترلنك، عند ما كتب هذه الدرامة، متشائماً. فهو يصور القدَر يسيّر الكون، فلا يستطيع أي مخلوق أن يقف في وجهه. فالقدر هو الذي سلط على ميليزاند الآلام الفتالة بعد فرارها من زوجها؛ وهو الذي وصل بين قلبيها وقلب بلياس بالحب ... هذا الحب العنيف الذي لا يقاوم، وهو الذي دفع جالود إلى القتل، وحال دون سعادة مخلوقين بريئين، ثم هو الذي ضرب العاشقين ضربات مؤلمات على جريمة لم يرتكباها ... فهذه القوة التي لا ترحم ... هي التي فعلت هذا كله. والعقيدة المسيحية (تبرر) الألم بأنه عقاب أو تكفير عن ذنوب. ولكن بلّياس وميليزاند لم يرتكبا جريمة، إنهما بريئان، وإنما تحابّا ... فكأن الحب جريمة لا تغتفر.

(دمشق — البحث بقية)

صبحي الصيدلاني المنجد

---

(١) المرط: الثوب الفاخر الناعم والجمع المروط

(٢) معالم القربة في أحكام الحسبة (ص ١٥٧ من طبعة كمبردج)

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور (١: ١٩٣)

(٤) البداية والنهاية في التاريخ (١٤: ٢٨٠)

القِمع[1] من على رؤوسهن عما عليها من المناديل ، فامتنع النساء من الخروج »[2]

وكانت بعض النساء يتهزن الفرص للخروج إلى المتنزهات والظهور بأزيائهن المختلفة ، بما لا يكون مرضياً في بعض الأحيان ؛ فكن يلقين ممانعة من أولي الأمر وامتعاضاً من مسلكهن البعيد عن الاحتشام . فمن ذلك ما نقله المقريزي في بعض كتبه ، واليك كلامه بحرفه :

« وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون : وفي سنة ست وسبعمائة (١٣٠٦ م) ، رسم الأميران بيبرس وسلار بمنع الشخاتير[3] والمراكب من دخول الخليج الحاكمي [خارج القاهرة] والتفرج فيه بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات اللاتي تجمع الخمر ، وآلات الملاهي ، والنساء المكشوفات الوجوه ، المتزينات بأفخر زينة من كوافي الزركش[4] والقنابيز والحلي العظيم ، ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ، ويقتل فيه جماعة عديدة . ورسم الأميران المذكوران أن لمتولي الصناعة[5] بمصر أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور ، إلا ما كان فيه غلة أو متجر أو ما ناسب ذلك . فكان هذا معدوداً من حسناتهما ومسطوراً في صحائفهما »[6]

ومثل هذا الإنكار والمنع شيء كثير في كتب التاريخ والأدب لا يسعنا استقصاؤه في هذه النبذة . وقد اكتفينا بذكر بعض الأمثلة ، لما فيها من فائدة بكونها تطلعنا على بعض أصناف ملابس وأزياء النساء كانت شائعة بين القوم في المائتين السابعة والثامنة للهجرة

ولا نريد أن نطيل الكلام الآن على الأوامر الجائرة التي أصدرها الحاكم بأمر الله في هذا الصدد . فهي في جلتها إجحاف بحقوق النساء وإرهاق لهن ، ولم يكن فيها ما يستند إلى عقل ويحتكم إلى منطق ، إنما كان ذلك دأبه في غالب أوامره ونواهيه . من ذلك ما رواه ابن تغري بردي في حوادث سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) أن الحاكم بأمر الله « منع النساء من الخروج في الطريق ، ومنع من عمل الخفاف لهن ، فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات »[1]

ثم قال في موطن آخر من أحداث تلك السنة أنه « أمر بحبس النساء في البيوت »[2]

وذكر في أخبار سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أنه « منع النساء من الخروج من بيوتهن . وقتل بسبب ذلك عدة نسوة »[3]

(بغداد) كوركيس عواد

---

(١) القمع ، واحدتها القمعة : قطعة خشبية مستديرة بحجم أعلى الرأس ، تضعها المرأة فوق رأسها وتغطيها بالقماش وهي ما زالت متخذة عند بعض القرويات في شمالي العراق

(٢) اللمعات البرقية في النكت التاريخية (ص ٦٣)

(٣) الشخاتير ، واحدها الشختور : ضرب من السفن النهرية

(٤) في السلوك للمقريزي (٢ : ٢٩) : « بكوافي الذهب على رؤوسهن »

(٥) يقصد به متولي دار الصناعة ، أي صناعة السفن

(٦) الخطط المقريزية (٣ : ٢٣٣ مطبعة النيل) وقد ورد هذا الخبر ، بشيء من الاختلاف ، في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (٢ : ٢٩ طبعة الدكتور زيادة)

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٤ : ١٧٨ — ١٧٩)

(٢) النجوم الزاهرة (: ٢٣٥)

(٣) النجوم الزاهرة (٤ : ٢٣٦)

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ،

و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات : الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد .